الهرمينوطيقا: المصطلح والمفاهيم

د.تيرس هشام
أستاذ محاضر (قسم أ) بقسم اللّغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللّغات والفنون
جامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس/الجزائر

تشير كثير من المصادر إلى أنّ استعمال مصطلح هرمينوطيقا (Herméneutique) يرجع إلى القرن السابع عشر إذ إنّ "أوّل ما ظهرت كلمة "هيرمينوطيقا" كان ذلك في عنوان إحدى الكتب عند دانهاور سنة 1654"[1] ما يعني أنّ هذا التاريخ شهد تحوّلا في الممارسة التأويلية بدخول مصطلح الهرمينوطيقا الذي سعى من خلاله دانهاور إلى "وضع أورغانون شبيه بأورغانونأرسطو يسعى نحو الوصول للمعرفة اليقينيّة"[2] ومن ثّم كان المنعرج الذي مثّله بروز المصطلح الجديد في ساحة الممارسات التأويلية القديمة .

من النّاحية الاشتقاقية، لن يكون من الصّعب التقاط المحور الذي تدور حوله جلّ التّعريفات التي تعود بالمصطلح إلى أصوله الأولى، حيث" تدلّ الهيرمينوطيقا – قبل كل شيءعلى ممارسة فكريّة دليلها الآليّة أو الفنّ وهو ما يستحضره تشكيل اللّفظ الذي يدلّ على التّقنيةّ خذ الفّن هنا دلالة الإعلان والتراث والتّفسير والتّأويل ويشتمل طبعا على فّن الفهم كأساس ودعامة له والضّروري عندما لا يستعاب دلالة الشيء بصورة صريحة أو دون لبس، نجد في الاستعمال القديم للفظ نوعا من الالتباس، فقد اعتبر هرمس Hermes رسول الآلهة إلى البشر، كما أنّ الأوصاف التي دلّ عليها هوميروس تظهر غالبا أنّه (أي هرمس) يبلغ حرفيا وينجز كاملا ما وُكّل بتبليغه"[3]، فالتّحليل ينحو –كما العادة– نحو جزئي المصطلح: السابقة واللاحقة، والسابقة هنا يُرجع بها إلى هرمس مع اختلاف في الجذر الذي يشير إليه، وفي هذا يُرى بأنّ " الهيرمينوطيقا في أصلها اللاتيني Herméneutikéأي فّن التّأويل، وفي اشتقاقاتها الأصلية جاءت من لفظ Hermeniaمن هرمس Hermes، الإله الوسيط بين الآلهة والناس، يفسّر لهم ويشرح المرمز ويفكّ الطلاسم، ومع آباء الكنيسة كان يعني تفسير كلمة

الله، المعنى باق هو الوساطة وفهم معنى الرمز، وتفسير النص للمؤمنين"[4] ، وتضيف صفاء عبد السلامعلي جعفر جذرا آخرا ممثلا في إشارة " الفعل Hermneuein والاسم Hermeneia إلى الإله المجنح هرمس Hermes"[5] دون أن تقطع بأيّ منهما أشتق من الآخر[6].

لقد طالما مثّل هرمس المعرفة الكاملة والفهم الأمثل: ومن ثم كان الرمز الأقدر على حمل فكرة التّأويل اللانهائي واللامحدود، "ولأنّ الحضارة الإغريقية كانت مهووسة بفكرة اللانهائي، فإنها بلورت، على هامش مبدأي الهوية وعدم التناقض، فكرة المسخ الدائم مرموزا إليها بهرمس. ولقد كان هرمس كائنا متقلبا وغامضا فقد كان أبا لكلّ الفنون وربّا لكل اللصوص في الوقت ذاته، ولقد كان شيخا وشابا في ذات الوقت"[7]. إنّه كل شيء ولا شيء في آن، ولهذا مثل الفكر الهرمسيّ قمّة الممارسة التأويلية التي لا تستند إلى مبدأ ولا تعترف بحدّ متجاوزة كلّ "الأعراف" أكانت من طبيعة عقلية أو فكرية أو حتى نصية، ما جعله من أبرز التيارات التي تحظى باهتمام التأويليين قديما وحديثا، ومن هؤلاء الإيطالي أومبرتو إيكو الذي يرى في أسطورة هرمس نفيا لمبادئ العقلانية الإغريقية من هوية وعدم تناقض وثالث مرفوع[8].

وغير بعيد عن هرمس في تحليل كلمة "هرمينوطيقا" نجد ربطا آخر عند هيدجر الذي يعتبر "أنّ ((ما هو هيرمينوسي)) لا يعني أولا التأويل وإنما التبشير والبشارة والإعلام والإخبار donner annonce et porter conaissance، أي إعلان المدلولات والرسالات التي يحملها النص، وتعريف الآخرين بها"[9]، وهو ما يحمل طابعا واحديا بعيدا عن أيّ تعدد في الدلالات ذي طابع تأويلي، بل إنّ في هذا الربط لهرمس بمصطلح الهرمينوطيقا ما يقترب من الفهم الأرسطي للتأويل، وذلك إذا عرفنا أنه قبل "هرمس" لم تكن الكلمات قد قيلت: فهو قد تلقى الإلهام عند الآلهة ، وفي أقواله الملهمة كان مفسرا لها" [10]، فهو قبل أن يكون مؤولا فهو معبر، ولعلّ هذا ما يبّر شمولية ما يمكن أن نلمسها في مصطلح الهرمينوطيقا قياسا إلى مصطلح التّأويل.

على هذا، نجد أنّ الناحية الإيتمولوجية لمصطلح "هرمينوطيقا" غالبا ما تتجلى في ربطها بهرمس من خلال جوانب عدّة معظمها يدور بشكل أو بآخر في فلك الفهم والتّأويل، وقد أجمل دايفيدجاسبير معظم تلك المعاني في قوله:

"كلمة Hermeneutics (هرمنيوطيقا) هي التعبير الإنكليزي للكلمة اليونانية الكلاسيكية Hermeneus (هرمس)، وتعني المفسر أو الشارح. وفي موضع من كتابات الفيلسوف أفلاطون وصف الشعراء بأنهم "مفسرو الله" وفي الأسطورة اليونانية، كان هرمس رسول الآلهة، يتميز بسرعته ورشاقته، وكان عمله هو أن ينقل إلى الناس في الأرض رسائل وأسرار آلهة أوليمبوس (olympus). كان هرمس قادرا بنعله ذي الأجنحة على تجسير الفجوة بين الإلهي والعالم البشري، ويصوغ بكلمات مفهومة ذلك الغموض القابع وراء القدرة البشرية على التعبير"[11]، فهرمس، إذن، هو مدار فهم كلمة "الهرمنيوطيقا" وأصولها الاشتقاقية ومعانيها التي تتراوح بين "التعريف والشرح والترجمة والتأويل والتعبير"[12] كما لخّصها فرناند هالين.

هذا من جهة السابقة في المصطلح التي تُربط –كما رأينا– بأسطورة هرمس، أمّا من حيث اللاحقة فقد أُختلف في النظر إليها بين من يراها فنا ومن يراها تقنية أو آلية ومن يراها علما قائما، ولعل البحث في هذه المسألة هو في حقيقته عرض لمجمل الآراء المحورية التي رافقت مسيرة الهرمينوطيقا ومواقفها من قضية المنهج، من حيث إنّ الهرمينوطيقا هي في أغلب ممارساتها طاقة تتوجه نحو النصوص على اختلاف أنواعها ومستوياتها، بيد أنّ هذا لا يمنع، بعد أن وقفنا على الجانب الاشتقاقي، من أن نحاول تتبع الحمولات المفهومية– وإن بطابع إجمالي– التي ألحقت بمصطلح الهرمينوطيقا.

تتّسع الحمولات المعرفية للمصطلح اتّساعا منحها إياه الطابع الفلسفي الذي أملته النظرة العملية والتمحيصية التي رافقت ظهوره وتواتر استعماله، ولكن دون أن يبتعد هذا الاتساع كثيرا عن المعاني اللغوية التي ذكرنا والتي تمارس نوعا من التأطير، وعلى أنّ حصر كل التصورات المفهومية التي أُلحقت بمصطلح الهرمينوطيقا أو التصقت بممارسات رافقت استعماله عبر تاريخه الطويل والمتعّرج أمر يكاد يكون من المحال، فإنّ هذا لا يثني عن المحاولة، وهي محاولة اضطلعت الباحثة صفاء جعفر بجزء كبير منها، إذ ذهبت إلى إيراد التعريفات المحتملة حديثا للهرمينوطيقا، فجاءت كالتّالي[13]:

1– الهيرمينوطيقا هي نظرية تأويل الكتاب المقدّس Biblicalexegesis.

2- الهرمينوطيقا هي علم مناهج الفيلولوجيا العام philology (علم فقه اللغة).

3- الهرمينوطيقا هي علم الفهم اللغوي.

4- الهرمينوطيقا هي الأساس المنهجي للعلوم الإنسانية.

5- الهرمينوطيقا هي فينومينولوجيا الوجود والفهم الوجودي كما جاءت عند هيدجر.

6- الهرمينوطيقا هي أنساق التفسير التي استخدمها الإنسان للوصول إلى معنى يتجاوز الأساطير والرموز.

هي إذن، تعريفات ستّة حاولت الباحثة أن تحصر بها الاستعمالات الحديثة للمصطلح، وعلى الرغم من أنها أحاطت بكثير من تلك الاستعمالات كإشاراتها إلى فينومينولوجياهيدجر وتلميحها إلى هرمينوطيقا الحقيقة والمنهج المؤصل لها عند غادامير، وهما منأقطاب الهرمينوطيقا حديثا، إلا أنّ هناك ما يمكن أن يُلاحظ على بعض تلك التعريفات.

من ذلك مثلا، حديث الباحثة عن تأويل الكتاب المقدس "على اعتباره مفهوما من مفاهيم الهرمينوطيقا بشكل يوحي بالتطابق بين المصطلحين، وهو الأمر الذي لا يلقى قاعدة واسعة من الاتفاق، بل قد يكون العكس هو الصحيح، إذ "لايكاد يختلف أهل النظر من الباحثين في حقل التأويلات حول التباين الموجود بين الهرمينوطيقا Herméneutique وتفسير النصوص المقدسة exégèse، لاسيما تفسير العهدين: القديم والجديد Ancien et nouveau testament ، فقد وُضعت جملة من القواعد لشرح وتفسير هذه النصوص رفعا للبس والغموض الذي يعتريها، وهي في معناها العام ضوابط لا تخرج عن التأويل الحرفي والروحي والقانوني. إنّ دور الهرمينوطيقي l'hérméneute ، حسب هذا التصور هو ترجمة المعاني الغامضة، بوساطة مقدرته اللغوية، وجعلها مفهومة لدى القارئ المترجَم له"[14] أي إنّ مصطلح "exegese" لا يشير إلى أكثر من بعض الشروحات اللغوية أو الموضوعية البسيطة التي لا يحسن بحال مقارنتها بما تشير إليه الهرمينوطيقا من تلوينات فكرية تتخذ الصبغة الفلسفية في أغلب حالاتها، إلاّ إذا اعتبرنا أنّ "العملية الهرمينوطيقية تعنى بتكوين القواعد التي تحكم القراءة المشروعة للنص "المقدس" وكذلك حواشي وتفسيرات المعاني (exegesis). أي شروحات وتفسيرات المعاني الموجودة في النص وتحديد وجوه تطبيقها عمليا في الحياة"[15]،

بل قد يكون هذا التّصور الذي يجعل من الهرمينوطيقا مجرد ميزان أو معيار أو "أورغانون" يُقاس عليه التأويل لئلا يشتط بعيدا ويغرق في ذاتيته من أهم التّصورات التي حاولت جسر الهّوة بين مفهومي التأويل والهرمينوطيقا.

بالجملة، وعلى الّرغم من تعدّد الاستعمالات، إلا أنّه يمكن أن نوزّعها على مستويات ثلاثة، كما ذهبت إلى ذلك الباحثة نبيهة قارة، حيث تحدثت عن مستوى أوّل يتعلّق باستعمالها لتوصيف منهج معيّن أو صنف من المناهج لقراءة النّصوص وتفسيرها خاصّة عندما تكون الغاية إبراز معنى مفترض غير معطى بشكل مباشر، ثم عن مستوى ثان يتعلق بنمط التفكير المتعلق بالمناهج التأويلية، ومن ثم تحديد مبادئ مناهج تفكيك الرموز، ثم عن مستوى ثالث يشير إلى نوع معين من الفلسفة ذي نظرة خاصة للوجود أو للشعور أو للعقل، لتخلص الباحثة إلى أنّ المستوى الأول هو المستوى الميتودولوجي (المنهجي)، في حين أنّ الثاني هو المستوى الإبستمولوجي، أمّا المستوى الثالث فهو المستوى الفلسفي[16].

ويبدو أنّ هذا التصنيف الثلاثي يراعي معظم الاستخدامات التي يتواتر في فلكها مصطلح الهرمينوطيقا، هذا إذا راعينا التفاصيل الدقيقة التي يمكن أن توجدها التوجهات الفكرية وحتى الممارسات العملية تحت مستوى ما، ويبدو أيضا– بشيء من التقريب– أنّ مصطلح الهرمينوطيقا لا يشذ عن القاعدة التي تحكم كثيرا من المصطلحات في مجال العلوم الإنسانية، إذ غالبا ما يُتداول المصطلح الواحد – دونما شعور أحيانا– لتعيين مفاهيم قد يكون بينها ما بينها من اختلاف، فكلمة "نقد" مثلا، وهي لكلمة القديمة الشائعة المتداولة، تُستعمل للإشارة إلى الممارسات النصية التي تواجه النصوص الإبداعية أو إلى المناهج النقدية من حيث هي طاقات إجرائية عملية (المستوى الميتودولوجي) وتُستعمل للإشارة إلى الممارسات التقويمية التي تواكب تلك المناهج من حيث مدى قدرتها وكفاءتها على أداء وظيفتها أو ما يسمى بنقد النقد (المستوى الإبستمولوجي) كما تُستعمل في أحايين عدة لتوصيف ذلك الجهد الفكري المنصب حول قضايا الإبداع وطرائق مقاربتها التي تتولد عنها المناهج على اختلافها، وهو ما يعرف بنظرية الأدب (المستوى الفلسفي) كقضايا الخلق والإبداع والإلهام وغيرها.

الإحالات:

[1] هانس غيورغغادامير،فلسفة التأويل(الأصول، المبادئ، الأهداف)، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف (الجزائر)/المركز الثقافي العربي(بيروت، الدار البيضاء)/ الدار العربية للعلوم (لبنان)، ط2، 2006،ص 63.

[2] بومدين بوزيد، الفهم والنص(دراسة في المنهج التأويلي عند شليرماخروديلتاي)، منشورات الاختلاف (الجزائر)/ الدار العربية للعلوم (لبنان)، ط1، 2008، ص 65.

[3] هانس غيورغغادامير، فلسفة التأويل، م م س، ص 61.

[4] بومدين بوزيد، الفهم والنص، م م س، ص 13.

[5] صفاء عبد السلام علي جعفر، هيرمينوطيقا (تفسير) الأصل في العمل الفني (دراسة في الأنطولوجيا المعاصرة) ، منشأة المعارف، مصر، د.ط، 2000، ص 23.

[6] ينظر: المرجع السابق، ص 23.

[7] أومبرتو إيكو، التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط1، 2000، ص ص 28، 29.

[8] المرجع السّابق، ص 29.

[9] M. Heidegger, acheminement vers la parole, gallimard, paris, 1958, p 253

نقلا عن:فريد الزاهي،النص والجسد والتأويل،إفريقيا الشرق، بيروت/ الدار البيضاء، د.ط، 2003،ص103. وهيرمينوسيا هي الترجمة التي يقترحها فريد الزاهي .(Hermeneutique)لمصطلح

[10] صفاء عبد السلام علي جعفر، هيرمينوطيقا ، م م س، ص 26.

[11] دايفيدجاسبير، مقدمة في الهرمنيوطيقا، تر: وجيه قانصو، منشورات الاختلاف (الجزائر)/ الدار العربية للعلوم (لبنان)، ط1، 2007، ص 21.

[12] فرناند هالين، الهرمنيوطيقا، ضمن: فرناند هالين وآخرون، نظريات القراءة من البنيوية إلى جمالية التلقي، تر: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية ، ط1، 2003، ص 85.

[13] صفاء عبد السلام علي جعفر، هيرمينوطيقا، م م س، ص28 .

[14] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة (نحو مشروع عقل تأويلي)،منشورات الاختلاف (الجزائر)/الدّار العربية للعلوم (لبنان)،ط1، 2008،ص161.

[15] ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا) ، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط2، 2000، ص ص 47، 48.

[16] ينظر: نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل،دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، لبنان، ط1، 1998، ص05.